«١٥»

صلاح بن محمد الكسادي

لأول مرة في التاريخ - أمراء آل كساد - طموح النقيب صلاح - احتلال دوعن - الدفاع عن المكلا - النهاية المحتومة - جلاء الكسادي عن المكلا

❖ لأول مرة في التاريخ:

لأول مرة في تاريخ المكلا تقوم فيها إمارة مستقلة يحكمها آل كساد اليافعيون في القرن الثاني عشر الهجري، فقد كانت قبل ذلك تابعة لأية سلطة تفرض سلطانها على الساحل الحضرمي، حتى جاء آل كساد فكونوا فيها هذه الإمارة التي نتحدث في هذا الفصل عن أبرز شخصية بين أمرائها.

وقد كانت الشحر هي المدينة الأولى في ساحل حضرموت من حيث اتساع رقعتها وكثرة سكانها ومركزها التجاري والسياسي؛ لكونها أهم الموانئ التي تصدر منها وترد إليها حاصلات البلاد وارداتها، ولأن الحكومات الحضرمية التي تستقل بشؤون الساحل تتخذ الشحرعاصمة لها، والحكومة التي تتخذ عاصمتها في الداخل ويمتد سلطانها إلى الشواطئ الجنوبية تجعل من الشحر العاصمة الثانية لحكومتها، فعظم بذلك شأن هذه المدينة، وأقبل التجار والعلماء والأدباء على الإقامة بها والتردد إليها، فلم تستطع لذلك أية مدينة ساحلية أن تنافسها أو تبرز معها في مضمار.

ولم تكن المكلا أثناء هذا التاريخ الطويل أكثر من قرية صغيرة تتكون بيوتها من أكواخ حقيرة يسكنها صيادو الأسماك الذين يردون إليها من

المناطق المجاورة، وظلت كذلك بعيدة عن أي مركز تجاري أو أدبي أو سياسي إلى أواسط القرن الثاني عشر الهجري، حيث بدأت العشائر اليافعية تتمركز في أهم مدن البلاد الحضرمية على أنقاض الحكم الكثيري الذي تداعى وتلاشى، وكانت المكلا من نصيب قبيلة آل كساد الذين كونوا لأنفسهم فيها إمارة ذات شأن، وسعوا لبسط نفوذهم على المناطق المجاورة لها وعملوا لإنعاشها وجلب التجار إليها واستخدامها في التصدير والتوريد كأحسن ميناء صالحة لرسو السفن والبواخر فيها.

وقد استطاع الأمراء من آل كساد أن يلفتوا الأنظار إلى مدينتهم ويحببوا إلى الناس الإقامة بها بفضل ما عرفوا به من حب العدل وكرم الأخلاق وحسن المعاملة والتساهل مع التجار في فرض الضرائب واستيفائها، فأخذ عدد سكان المكلا في الارتفاع وقصدها الناس كسوق للتجارة وميناء يستغنون به عن الذهاب إلى الشحر، فقد كانت كثير من السفن تأتي إلى المكلا لتفرغ فيها حمولتها وتأخذ المسافرين وما معهم من بضائع ومتاع.

وهكذا أصبحت المكلا الميناء الثانية بعد الشحر من حيث الأهمية وقوة التجارة، وطفق الناس الذين فضلوا الإقامة بها يبنون بيوتهم محترمة مرتفعة تتكون من عدة طبقات، وبنى الأمراء من آل كساد حصنهم الكبير بالقرب من الميناء مقر الإمارة يستقبلون فيه ضيوفهم، ويبتّون فيه فيما يعرض لهم من مشاكل الإمارة وقضاياها، وكان هذا الحصن نموذجاً حسناً لفن البناء في ذلك العهد.

❖ أمراء آل كساد:

وأقدم من يعرف من آل كساد هو النقيب صلاح بن سالم، وقد تولى الإمارة بعد وفاته ابنه عبدالرب، ثم أخوه عبدالحبيب، وكان شهماً صارماً، ثم محمد بن عبدالحبيب، ثم صاحب الترجمة صلاح بن محمد بن عبدالحبيب.

وكانت كلمة النقيب لقباً معروفاً يطلق على كل أمير من آل كساد، وكان النقيب صلاح بن محمد أقواهم شخصية وألمعهم اسماً وأبعدهم صيتاً، فقد كان حسن السيرة جم العدل لا يحتجب عن مظلوم، محباً لأهل العلم والفضل، متوداً إلى مواطنيه من الرعايا منصفاً لهم من نفسه وولده وجنوده، وفي نفس الوقت كان شديد الوطأة على مخالفيه قلما تقع من أحد إساءة إلا اشتد في عقوبته بكل عنف وقسوة.

❖ طموح النقيب صلاح:

وكان النقيب صلاح منذ تولى الإمارة شاعراً بضيق مساحة إمارته التي لم تكن تتجاوز أكثر من ضواحي المكلا، ومنها: بروم وفوّة والبقْرين والحرشيّات، الأمر الذي لا يتفق مع طموحه وما يزخر به قلبه الكبير من نوايا وآمال، فظل يترقب كل فرصة لتحقيق آماله في التوسع والاستيلاء على أكبر رقعة ممكنة من البلاد.

❖ احتلال دوعن:

وكانت الخلافات بين حكام وادي دوعن من آل العمودي قد بلغت حداً يصعب معه حلها، ويقال بأن بعض آل العمودي التجأ إلى النقيب صلاح مستنصراً به على منافسيه من أبناء عمومته، فكانت فرصة لم يتأخر النقيب عن استغلالها والاستفادة منها، فأرسل سنة ١٢٨٦هـ قوة من جيشه بقيادة مجحم بن أحمد مجحم استولت على معظم وادي دوعن، ومن بينها «الخُريبة» إحدى مدن الوادي الكبرى.

ويقول ابن حميد: لما أوقع النقيب صلاح بمحمد بن شيخ العمودي سنة ١٢٨٨هـ سقط في أيدي العموديين خصوصاً سكان الخريبة والرباط، فأجمعوا على مقاومة الكسادي وإزالة جماعته من وادي دوعن، وساعدهم جميع قبائلهم مثل القثم وسيبان والمراشدة والجعدة والسادة والرعايا، وكتبوا العهود فيما بينهم بذلك، وأرسلوا وفداً إلى السلطان الكثيري يطلبون مساعدته.

وفي غرة ربيع الأول من نفس العام عاد الوفد بثلاثمائة من الشنافر والعوامر وآل جابر، ولم يصحبهم أحد من قبل السلاطين آل كثير ولا من مواليهم، ولكن هذه الكتيبة عادت بعد وصولها بمدة يسيرة بحجة أن آل العمودي لم يقوموا لهم بما يلزم من نفقات، وعلى إثر رجوعهم أرسل الكسادي نحواً من مائة وخمسين مقاتلاً إلى الخريبة وهجموا على بيوت آل العمودي.

وعقد آل العمودي اجتماعاً بـ«الشعبة» عند زعيمهم أحمد بن عبدالله بن بدوي، وحضر بدعوته رؤساء المشاجرة والديّن وبلعبيد، وأجمع رأيهم على مناجزة الكسادي وجعلوا القيادة والرئاسة للشيخ صالح بن عبدالله بن مطهر، واستجاب لهم من وادي ليسر الخنابشة وآل بلحمر، ولما رأى مجحم تضافر القوم أرسل من يعرض على الشيخ أحمد بن عبدالله بن بدوي مبلغاً من المال ليصرف عنه القوم، فرفض ودارت بين الفريقين معارك أدت إلى جلاء عسكر الكسادي عن دوعن بعد أن خسروا كثيراً من رجالهم، ولم تكن خسائر العموديين وحلفائهم بالقليلة.

❖ الدفاع عن المكلا:

في عهد النقيب صلاح بدأت السلطنة الكثيرية تطل برأسها من جديد وتحاول إعادة مجدها الغابر تحت زعامة السلطان غالب بن محسن الكثيري الذي سنتحدث عنه في فصل قادم، وكانت هذه المحاولة الكثيرية ترمي إلى الاستيلاء على المدن والمناطق التي تسيطر عليها قبائل يافع ومن بينها المكلا التي يحكمها النقيب الكسادي بحجة أن هذه البلاد كانت في يوم ما تابعة لسلاطين آل كثير.

وشعرت قبائل يافع بهذا الخطر فاتحدوا تحت قيادة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي وكبار أولاده، وكونوا جبهة دفاع ومقاومة ضد آل كثير، ثم بادؤوهم بالهجوم واستردوا بعض ما كان آل كثير قد استولوا عليه.

وأثناء هذه الحروب التي دارت بين يافع وآل كثير كوّن القعيطي سلطنته الحالية، واشترك النقيب صلاح الكسادي في بعض هذه المعارك كيافعيّ يهمه الاحتفاظ بسلطة عشيرته اليافعيين في حضرموت، وكان يرى في هذه الحروب فرصة لتحقيق ما يحلم به من توسيع إمارته الصغيرة التي طالما ضايقه ضيق مساحتها، فقد كان يطمع أن يقتسم حضرموت ساحلها وداخلها هو والسلطان القعيطي.

وربما شعر القعيطي بمطامع النقيب صلاح فتجاهلها بادئ الأمر؛ لأنه يرى ضرورة اتحاد القبائل اليافعية أولاً أمام خطر آل كثير، وانتظر النقيب الكسادي نتيجة هذه الحروب ليقرر مصيره في نهايتها، واشترك الفريقان الطامحان في الدفاع والهجوم ضد آل كثير وأنفقوا كثيراً من الأموال وقدموا عزيزا غَاليا مَن الضحايا.

ففي سنة ١٢٨٣هـ هاجم آل كثير الحرشيات بنحو ألفي مقاتل تمهيدا لِلهجوم على المكلا بعد أن استولوا على الشحر وأجلوا حكامها من آل بريك عنها، واصطدم المهاجمون بحامية الحرشيات التي لا تتجاوز المائة، وانضم إليهم من المكلا مائتا مقاتل قدموا لنجدتهم، فدارت معارك حامية توالت ثلاثة أيام أسفرت عن قتل قائد الحملة التي أرسلها القعيطي للدفاع عن المكلا واثنين وأربعين قتيلاً من يافع، وكانت أولى الاشتباكات في جول الدواعن «جول مَسْحَة» ثم حول حصن خازوق.

واستولى آل كثير على الحرشيات وذهب حاميتها بين قتيل وجريح وأسير، وقتل من آل كثير نحو مائة، واستمر الجيش الكثيري في زحفه إلى البقرين، ودارت الحميَّة برءوس من في المكلا من يافع وعلى رأسهم النقيب صلاح، فخرجوا مصمّمين على صد آل كثير مهما كلفهم الأمر، فاشتبكوا معهم في قتال عنيف في نواحي البقرين، ولّى آل كثير على أثره منهزمين تاركين وراءهم مراكز البقرين والحرشيات التي كلفهم احتلالها ثمناً غالياً.

وفي معركة حصن خازوق يقول الشاعر الشعبي المعروف عمر باعطوة الذي كان يصحب يافع عند دفاعهم عن الحصن:

على خازوق باروتنا بّيتْ وظَلَّا ونفّقنا البضاعة وسلمنا المكلا

وقد اهتمت حكومة القعيطي بهذا الحصن التاريخي الواقع بالقرب من الحرشيات، فجدَّدت بناءه وطلته من الخارج باللون الأحمر.

وكما اشترك القعيطي في الدفاع عن المكلا اشترك النقيب أيضا مَّع القعيطي في صد آل كثير عن الشحر عندما أعدوا حملتهم الكبرى لاستردادها في حادثة «مرير» المشهورة سنة ١٢٦٩هـ، والتي سيأتي تفصيلها في ترجمة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي، كما ساهم النقيب أيضاً بمائة ألف ريال في نفقات الهجوم الكبير الذي قام به القعيطي على آل كثير سنة ١٢٨٥هـ واشترك في هذه الحملة بخمسمائة جندي خرج هو على رأسهم.

❖ النهاية المحتومة:

وقبل أن ينتهي الصراع بين يافع وآل كثير وتعرف نتيجته الأخيرة، اخترمت المنيّة صاحبنا النقيب صلاحاً، فرحل إلى الدار الآخرة سنة ١٢٨٨هـ ورحلت معه آماله وأمانيه، فلم يكن خليفته ابنه الأمير عمر بن صلاح في مثل خبرته وكفاءته وبعد نظره، وسرعان ما دَبَّ بينه وبين السلطان عوض بن عمر القعيطي الخلاف الذي كان من أهم أسبابه مطالبة القعيطي للنقيب عمر بالمائة الألف الريال التي استدانها أبوه في نفقات الحملة الكبرى على آل كثير، واضطر النقيب عمر أن يتنازل للقعيطي عن نصف المكلا سنة ١٨٧٣م مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يخصم منها المبلغ الذي على والده، وأرسل القعيطي إلى المكلا بحكم هذه الاتفاقية من ينوب عنه فيها، وأمده بعدد من جنوده لحماية مصالحه في المكلا.

وبطبيعة الحال لم يكن النقيب عمر راضيا عَن هذا التصرف الذي ألجأته إليه الظروف المريرة، فبقي يعمل في الخفاء للتخلص من القعيطي

وانفراده بالحكم في المكلا بعد طرده منها.

وحانت الفرصة لذلك ذات يوم كان فيه السلطان عوض بن عمر موجوداً بالمكلا فدبَّر عمر بن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض بن عمر ضحيتها مع كثير من جنوده، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه وبمن معه من الجنود بطريق البحر إلى الشحر.

ولم يتردد النقيب عمر بعد ذلك في إعلان عدائه للقعيطي وانضمامه ضده إلى صفوف آل كثير محاولاً الاستنجاد بهم عند الحاجة، وكتب إليهم مرة يحثهم على مهاجمة الشحر ويعدهم بالمساعدة، وضاق السلطان عوض بن عمر بهذه التصرفات فلجأ إلى حكومة عدن يتذمر ويتظلم لديها من أعمال الكسادي، فتوسطت حكومة عدن في الصلح بينهما رسمياً وأخذت عليهما وثيقة بالتحكيم، ثم أصدرت حكمها بتخيير النقيب بين إحدى ثلاث:

إما أن يدفع المائة ألف التي على والده حالاً، أو يتسلم من القعيطي مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا، وينتقل هو إلى بروم، أو يتسلم من القعيطي مائتي ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها.

❖ جلاء الكسادي عن المكلا:

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال الثلاث، وطلب من حكومة عدن - وكان موجودا بًها للمفاوضة - أن تعيده إلى المكلا فأرجعته، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنجليزي عرض على النقيب أن يقبل إحدى هذه الخصال المعروضة عليه، وإلا فإنه سيضطر إلى ضرب المدينة بالمدفع، فسلم نفسه إلى قبطان البارجة «دراجون» مفضلا ًالجلاء على قبول الحكم الذي أصدرته حكومة عدن، وقد أبحرت به إلى عدن في طريقه إلى زنجبار سنة ١٨٧٧م وبصحبته عدد من أتباعه وحاشيته، وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة في ثلاثة

عشر مركباً شراعياً.

وبذلك انتهى أجل الإمارة الكسادية، ودخلت المكلا وملحقاتها تحت حكم السلطنة القعيطية ونفوذها.